ثانياً
رحلة دانتى أليجيرى
Dante Aligheri
١٢٦٥م - ١٣٢١م

حين نقف مع دانتى فى رحلته إلى الدار الآخرة، فى الكوميديا الإلهية، فإننا نقف فى الواقع مع فارس عصر النهضة وشاعرها المبدع، روحها الوضئ، ووجدانها المُشرق، وعقلها البصير.

وهو ينتمى إلى أسرة من أصول رومانية أصيلة، ترتبط ببيت يوليوس قيصر ذاته، أحب منذ صباه، بياتريتشى BeatricE حلم دنياه، وأمل آخرته، وقد بكاها كثيراً عندما هجرته، وتزوجت أحد الأثرياء الكبار، وبكاها أكثر وأكثر طوال حياته، عندما ماتت فى عمر الورود.

وهى التى وضع من أجلها كل أفكاره وأشعاره وتأملاته فى رحلته إلى الدار الآخرة، سُمُوًّا بنفسه معها، وتخليداً لحبه لها فى دنياه وأخراه، وسوف نرى فى ثنايا الكوميديا الإلهية، فيضاً من دموعه الضارعة، فى حواره معها، عندما تلقاه فى ساحة الخلود آسفاً، نادماً أشد الندم على ما اجترحه من آثار فى حق قداستها

وطهارتها، فإذا صاحبنا معنا فى هذه المقدمة عن دانتى، الشاعر الكبير، إليوت T.S.Eliot فإننا نؤكد أن اختياره يرجع إلى عشقه لدانتى عشقا لانظير له، الأمر الذى جعله يقتدى به ويترسّم خُطاه، ويتنفس فى أجوائه، ويحيا فى تأملاته وأفكاره.

يقول إليوت[1] فيما يقول، فى مقالاته المختارة عن دانتى «فيما يخص علم أو فنّ الكتابة الشعرية، فإننى قد تعلمت من «دانتى» أن أعظم الأشعار، هى ما كانت فى كلمات مُختصرة اختصاراً شديداً مع الصرامة التامة، فى استعمال الاستعارة والتشبيه وجمال اللفظ ورونقه» «وأنا حينما أؤكد، أنه يمكننا أن نتعلم من دانتى كيفية صياغة الشعر، أكثر من أى شاعر إنجليزى ممتاز، فإننى لا أعنى ذلك أن منهج دانتى، هو الطريق الوحيد الصحيح، أو أن دانتى أعظم من «شكسبير» أو أى شاعر إنجليزى آخر». «إنّ لغة دانتى - رغم أنها عادية، إلا أنها فى الواقع متكاملة وهذا واضح تمام الوضوح فى رائعته الخالدة: الكوميديا الإلهية حيث تلتحم الفلسفة بالنسيج الشعرى، فتشدّ من خيُوطه

(١) إليوت T.S eliot (١٨٨٨م- ١٩٦٥م): المقالات المختارة عن دانتى Eliot (T.S): Dante Selected essays 10. 250/260 وانظر ايضا له: The use of Poetry

ويتداخل فى مكوناته، وتصبح جُزْءاً لا يتجزأ من هذا التنسيق المُبدع، الذى يكون في مجموعه ذلك الإنتاج الفنى العظيم»[1].

من هنا ندرك كيف تتفاعل الفكرة الفلسفية، مع الوجدان الشعرىّ فَتُخْصِبُهُ، وتمنحه ثراءً منقطع الوصْف والنظير، حيث تخلّلُ عناصرَهُ، وتَنْبتُّ فى كل ذراته وشحناته، قبل أن تمتزج بها جميعاً وتتحد معها كلّها «وما هذا السلوك إلا تطابق متكامل للقضايا الميتافيزيقية، وتجسيم للرؤى الخلاقة وتركيز للفكرة الفلسفية، فى بؤرة شعورية، تعتمد على الحدث، قدر اعتمادها على الشعور الصادق والتأمل البصير[2]».

وعلى الرغم[3] من أن الشعر، سواء فى العالم الغربى، أو العربى، قد سار -فى الأغلب الأعم- فى خط منفصل عن الفلسفة والفكر الفلسفى، وعلى الرغم من أن الفلسفة حَصَرَتْ مجالها فى الفكر المجرد، فإننا نجد فى التراث الإنسانى، التحام الخطين فى الشعر الميتافيزيقى الذى لا يعتمد على الجَدلَ، قدر

(١، ٢، ٣) المصدر السابق لإليوت وانظر مقالنا: الشعر الفلسفى بين دانتى وإليوت: مجلة الأديب بيروت عدد مارس ١٩٧٥م السنة ٣٤. وقد درسنا فى هذا المقال مواضع اللقاء بينهما وأثر دانتى فى ملاحم إليوت.

اعتماده واستناده إلى الملاحظة الباصرة، التى تستمد وَقُودهَا، وقوتّها، وحيويتها، من المشاهدة النافذة للمرئيات المختلفة.

«إليوت»[1] هنا يرى، فى هذه النقطة الشائكة، أن الشعر لم يكن فى يوم من الأيام أصلاً للفلسفة، ولم يضع مطلقاً الشكل الأساسىّ لها» لأن الفلسفة - كما يقول- لاتستند إليه، فى مراحل التطور الفكرى، والعكس هو الصحيح، فلقد غَزَت الفلسفة ميدان الشعر، واقتحم النظر العقلى محيطه، بعد أن تبلورت قضاياها، ورسخت اتجاهاتها الفكرية وأصبحت فى وجدان النابغين والعباقرة من الشعراء والأدباء.

من هنا ندرك أن «دانتى» صاحب الكوميديا الإلهية، قد أفاد فائدة عظمى من الفكر الفلسفى والتأملات الفلسفية السابقة على عصره، منذ عهد سقراط وأفلاطون، وحتى أفلوطين وأوجسطين ولاشك أن أية محاولة لفصل تيار هذا الفكر الفلسفى عن شاعرية «دانتى» فيها إساءة للدراسات الفلسفية والفنية معا، قبل الإساءة إلى دانتى فى ذاته وأفكاره ووجداناته، وقبل الإساءة إلى أمثال، إليوت، «وسارتر»، وكامى وأمثالهم فى إبداعاتهم جميعاً.

---

(١) المصدر السابق لإليوت وانظر مقالنا: الشعر الفلسفى بين دانتى وإليوت: مجلة الأديب بيروت عدد مارس ١٩٧٥م السنة ٣٤. وقد درسنا فى هذا المقال مواضع اللقاء بينهما وأثر دانتى فى ملاحم إليوت.

والذى لاشك فيه أن «دانتى» كان صاحب حسٍّ رقيق، جعله شديد التأثر، حتى ليصدق عليه ما نقوله أحياناً عن الإنسان، ذى الحساسية المفرطة، من أن أعصابه فوق جِلده، وكان كثير البكاء، فى صورة غريبة حقًّا وفى غرفة خاصة، تسمى غرفة الدموع والأشجان، وكان من فرط حُزنه، يحرك رأسه، بلا وَعيٍ كامل، كأنه شئ ثقيل لاحياة فيه[1].

بكى «دانتى» وهو طفل وهو صبى، وهو شاب، وهو كهل وبكى كثيراً عندما كان يكتب الكوميديا الإلهية فى رحلته إلى الدار الآخرة التى كان يحن أشد الحنين إلى الانتقال إليها، وبكى أكثر وأكثر عندما شارك المعذّبين آلامهم فى الجحيم والمطهر، وبكى فى ندم وحَسْرةَ وضراعة، عندما عاتبته «بياترتيشى» معشوقته السماوية، وكانت قاسية عليه أشد القسوة، وهو يجتاز عتبات المطهر، كما بكى عندما سمع تراتيل الملائكة فى الفردوس العظيم».

ولما كان «دانتى» قد عاش غريبا، مَنْفِيًّا بين قومه، وهو فيهم وفى وطنه، وهو ينتقل فى جنباته، وفى دنياه، وهو يتعجل فيها

(١) الدكتور حسن عثمان: مقدمات الكوميديا الإلهية التى قام بترجمتها وتحقيقها، بما يفوق حدود الروعة والإبداع مما يؤكد خسارة الساحة الفكرية والأدبية العربية، من فقدان واحد من أعلام الرواد العرب!!.

آخرته، فقد كان فى أعماق نفسه ثائرًا غاضباً يود لو استطاع الانتقام من كل من أساء إليه، من بعيد أو قريب.

وقد عاش «دانتى» حياة عريضة، حافلةً بكل الصراعات، فى وطنه الغريب عليه، وفى منفاه الروحى فى جسده ودنياه، لكنه لم يؤمن إلا بقوة الروح، وإرادة الفن والفنان.

إن رحلة دانتى إلى الدار الآخرة، بدأت مساء الخميس ليلة الجمعة ٧-٨ من شهر ابريل عام ١٣٠٠م، وانتهت يوم الخميس ١٤ من ابريل من نفس العام... سبعة أيام كاملات، حيث استغرقت زيارة الجحيم يومين والمطهر أربعة أيام، و الفردوس نهاراً واحداً فقط، وكان الزمن الباقى من حساب الأيام السبعة، للعبور بين الجحيم والمطهر والفردوس.

وقد سَلَكَ «دانتى» نهجاً أقرب إلى النهج الصوفى الحدسى، فى علاج النفس البشرية لتصعد من درجات النفس الغريزية، إلى معارج النفس اللوامة المتطهرة المتحررة، حتى تتسامى إلى درجات النفس المطمئنة الراضية المرضية[1].

لهذا كان يرى أن تغيير المعتقدات والقوانين والنظم لايؤدى

(١) دانتى: الكوميديا الإلهية: الترجمة العربية، المصدر السابق الجحيم: الأنشودة ٣/ ٧٧، المطهر ٣/ ٨١، الجحيم ٥/ ١٦٤- ١٧٤.

بالضرورة إلى إصلاح حقيقى، بل إن تطهير النفس، وتحرير الروح، باطنيًا هو الطريق الصحيح للسعادة الحقة، فى ساحة النقاء، وحياة الصفاء والعدالة[١].

وتظهر لنا حقيقة واضحة كل الوضوح، يؤكدها «دانتى»[٢] فى رحلته الخالدة، وهى أن العقل البشرى، لايمكنه الاحاطة بجوهر الوجود أو أسرار الوجود «وإنه لمجنون مجنون، ذلك الذى يأمل فى عقلنا (الإنسانى) اجتياز الطريق اللانهائى» ولاشك أن «دانتى» هنا يتفق ويؤكد أوجسطين والغزالى معاً، فى هذه النظرة[٣]، كما أنه يؤكد مفهوم النظرية الأفلاطونية القديمة، التى ترى أنه بالتطهر الصادق، يمكن اجتياز العقبات نحو السكينة السماوية[٤].

وقد ناقش «دانتى» كثيراً من القضايا فى رحلته (كالمعرى سواء بسواء) ومنها، قضية المسئولية الأخلاقية والجزاء، نرى هذا واضحاً حين يسأل «دانتى» صاحبه ورائده «فرچيل» عن السبب

(١، ٢) دانتى: الكوميديا الالهية: الترجمة العربية، المصدر السابق الجحيم: الأنشودة ٣/ ٧٧، المطهر ٣/ ٨١ ، الجحيم ٥١/ ١٦٤- ١٧٤ .

(٣، ٤) انظر كتابنا: الفلسفة الصوفية فى الإسلام ط٣ دار المعارف ١٩٩٦م. ٣ دانتى: الجحيم فقرة ١٠٠/ ٧١ والفقرت ٥٥-٦٧ وانظر المطهر: فقرة/ ٧١.

فى عدم سيطرة أو انتصار الفضائل فى عالمنا الأرضى ويكون الجواب، بأن ذلك ليس مسئولية السماء، فليست السماء هى السبب، وإلا كان هذا معناه، إلغاء الإرادة الحرة لآدم ولذرية آدم وحواء، فالإنسان بإرادته الحرة، وحريته المريدة، هو الذى يختار عقله طريق الخير أو الشر، الصواب أو الخطأ، الحق أو الباطل..

أمر آخر يؤكده «دانتى» هو أن البشر أنفسهم هم سبب كثرة الفساد فى العالم، فإن النفس تهبط -كما يقول- ساذجة نقية، إلى العالم الأرضى، ثم ما تلبث أن تُهرع إلى سراب الدنيا التافهة الزائلة.

من هنا كان ضروريًا وجود قانون حاكم يرعى ويحمى البشر، ولكن ليست العبرة، فى تلك القوانين والتشريعات، بل فى من يباشرها ويحميها ويُطيعها من الحاكمين[1] وفى فلسفة المحبة يرى «دانتى» أنه لكى تكون المحبة صادقة، فإنه يجب أن تكون صادرة عن عقل لكى تكون عادلة خيرة، فإذا اعتدلت فى محبة الدنيا، فإنها لاترتكب خطأ أو خطيئة، ولعل دانتى هنا

(١) المصدر السابق لدانتى.

وثيق الصلة برأى سقراط فى الفضيلة والمعرفة، وأن الفضيلة معرفة، فمن عرف -(عن عقل)- لم يخطئ ولم يأثم[1].

كما يرى «دانتى»[2] أن المعارف الأولية فطرية فى الإنسان وهى صادقة كل الصدق «صدق غريزة النحل فى صناعة العسل» ويؤكد[3] أن العقل المستنير البصير، هو الذى يَحمى الروح من قبول المحبة الخبيثة، كما أنه الذى يحسم الموقف بالرفض لكل مايجنح بالنفس إلى دنايا الأمور، بوحى من الإرادة الباصرة.

ونرى أن «دانتى» فى حواره حول أثر الكواكب والنجوم والأفلاك والأبراج، ينكر تمام الإنكار أثر هذه الأجرام فى حظوظ المواليد من البشر، من مولدهم إلى وفاتهم، وهو فى هذا يتفق مع القديس أوجسطين فى اعترافاته، ويركز دانتى فى نهاية رحلته إلى الدار الآخرة، على نقطتين خطيرتين، فى هذا المجال الأولى: هى يقينُ الإرادة الإنسانية التى هى مناط المسئولية الأخلاقية، الثانية: وَفْرةُ النعم الإلهية، التى هى فوق البصائر والمدركات الإنسانية، وهى التى تملك زمام الكون كله رعايةً ولطفاً وفيضاً

(١) المصدر السابق وانظر محاورات أفلاطون حول سقراط ترجمة الدكتور. زكى نجيب محمود.

(٢، ٣) دانتى: المصدر السابق فى الكوميديا وانظر اعترافات القديس أوجسطين.

من رحمة الله، وهذا هو ما نجده عند فلاسفة الإسلام فيما يسمونه للطف الإلهى والعناية الإلهية والتوفيق الإلهى، وما يدخل فى الفلسفة الإسلامية مؤكداً أن دليل العناية الإلهية وثيق الصلة بدليل إيجاد الله لكائناته ومخلوقاته، بمعنى أوضح إن دليل العناية يدخل فى دليل الوجود معاً وجميعاً، فالله الخالق الموجود لكل شئ هو الراعى الحافظ بعنايته ورحمته لكل شئ، سبحانه وتعالى، ليس كمثله شئ.

قبل أن ندخل ساحة دانتى فى رحلته الخالدة، بقيت لنا كلمة قصيرة جدًا، عن قضية تأثره برسالة الغفران للمعرى فى صياغته للكوميديا الإلهية، تلك القضية التى أكدها «بلاسيوس» ١٩١٩م ووثقها شيرويلى ١٩٤٩، حين نشر وثائقه حول معراج محمد، أو «سلم محمد» وفى رأينا أن دانتى عاش فى عصر شديد التعصب للصليبية، لكنه من المؤكد قد طالع رحلة الإلياذة والأوديسه لهوميروس إلى الدار الآخرة ثم رحلة فرجيل مع الإنيادة ثم الترجمان لمعراج محمد، أو (سُلّم محمد).. الذى قرأ فيه، عن الملاك الذى تشخص فى صوت الديك أو النسر الأعظم القائم فى الأفق ما بين السماء والأرض...، إن هذا معناه أنه

مبدع، وإن تأثر بما تأثر من إبداعات سابقة بعيدة عن المعرى.. فإذا دخلنا ساحة الكوميديا الخالدة، فإننا نجد فى جزئها الأول الجحيم، صُوراً رهيبة حقّا.. تُمثّل فيما تمثّل نزوات الشباب الثائر المتحرر، مع سورة الغرائز البشرية لإشباع نَزَواتها مع الخطيئة والعذاب والمأساة والحياة الدنيا، ويمثّل الَمَطْهرُ: التجربة والنضج والفكر والتطهر والأمل فى حياة نورانية خالدة، بينما يُمثّل الفردوس، الكهولة المستنيرة مع الصفاء والخلاص والنور الإلهى العظيم.. وهى بكل ملامحها مرآة الحياة، وأغنيتها الإنسانية الكبرى على مّر العصور والدهور.

انتقال إلى الجحيم

الغابات الموحشة والدروب الحزينة

دانتى.. فى مونولوج حزين:

فى منتصف طريق حياتنا، وجدتُ نفسى فى غابة مظلمة، إذْ ضللتُ سواء السبيل، ما أقسى المُضِىَّ فى هذه الغابة الموحشة، إنها أشد مرارةً من كل شئٍ مُرٍّ، حتى لايكاد الموت يزيد عنها فى شىء!!

آه!!! لا أُحْسِنُ أن أقول، كيف دخلتُها؟ فقد كنتُ مُثْقَلاً بالنوم فى اللحظات التى ضللت فيها سبيل الصواب، وكَمَنْ خرج لاَهِثَ الأنفاس من البحر إلى الشاطئ، فيلتفتُ إلى المياه الرهيبة، ويتأمل!! هكذا التَفَتَتْ روحى إلى الوراء، وكانت لاتزال لائذةً بالفرار، لكى تُحَمْلِقَ فى الطريق، الذى لم يَدَعْ أبداً إنساناً حيًّا!!! وبينما كنتُ أهبط مُنْدفعاً إلى الموضع الخفيض، ظهر أمام عينى شَبَحَ يُهَمْهِمُ بصوتٍ مَبْحُوحٍ من صمتهِ الطويل!!!

يتقدم دانتى قريباً من
وقع أقدام الشبح ويناديه فى ضراعة

دانتى:

شَبَحاً كنتَ، أم كنت إنساناً حيًّا . . .

فإنى أستنجدُ بك، فكنْ رحيماً بى كائناً مَنْ كُنت!!!

فيرجيل . . الشاعر صاحب الانيادة:

لستُ إنساناً، وكنتُ من قبلُ إنساناً ولُدتُ فى عهد يوليوس قيصر، وعشت أيام أغسطس الطيب فى عهد الآلهة المزيّفين الكاذبين.

دانتى.. فى فرح:

أكاد أعرفك، نعم أكاد أعرفك...

فيرجيل:

كنتُ شاعراً وتغّنيت باسم ذلك العادل أَنْيِاَسْ الذى جاء من طروادة بطلاً.

دانتى:

إذن أنت فرجيلُّلو، النَّبْعُ الذى فاض نهراً عظيماً..

فيرجيل:

سمعتك تَنُوحُ وتبكى فَهرعتُ إليك.. لقد بَعَثْتَنِى إليك سيدة جميلة مباركة لأكون دليلك فى رحلتك المباركة إليها، نعم إليها.

دانتى.. فى شوق:

بياتريتشى!!!

فيرجيل:

نعم، فهى التى نادتنى من عَليائها، تَأَلَّقَتْ عيناها أكثر من النجم، ونظرتْ نحوى نظرةً حانية، وهى تخاطبنى فى رقة ولطف وفى لُغتها أصوات الملائكة.

عودة إلى مسمع بياتريتشى مع فرجيل

بياتريتشى:

أيها الروح الكريم.. الذى لاتزال شُهرته باقية فى الدنيا، والتى سَتَبْقىَ كَدَوْرة الزمن..

إنّ صديقى «دانتى» قد اعترضته صعاب شداد فى الطريق، على الشاطىء القفْر، فارتدّ من الرعب إلى الوراء، إننى أخشى أن يكون قد ضل ضلالاً بعيداً، فَتَحرك نحوه وأعِنْهُ بفصاحتك، وبما هو ضرورى لنجدته..

أنا بياتريتشى التى أبعثك إليه، وقد جئتك من مكان أرغب فى العودة إليه الآن، لقد حَرَّكنى الحبُّ الذى يجعلنى أتكلم وأتكلم، وقد وَضَعْتُ ثقتى فيك، فهيا إليه..

عودة إلى دانتى

فيرجيل:

وهكذا جئت إليك سريعا بأمرها، وأنقذتُكَ من براثن ذلك الوحش الرهيب، الذى أراد أن يمنعك من سلوك الطريق القصير

إلى الجبل الجميل، نعم هكذا جئت إليك ولايزال مشهد عينيها المتألقتين بالدمع، يدعونى إلى نجدتك وهدايتك.

دانتى:

ياللسماء!! يا أيتها الرحيمة الحانية التى عاونتْنى.. وأنت أيها الكريم الذى أطعتَ كلمات الصدق.

هأنذا سعيد برفقتك وصحبتك دليلاً ورائداً وهادياً.

انتقال إلى مدخل الجحيم حيث أنين المعذبين

صوت من الجحيم:

أيها الداخلون اِطْرَحُوا عنكم كُلَّ أمل!!!

دانتى.. يبكى:

ما أقسى ما أسمع وأرى ياسيدى..

فيرجيل.. فى ثقة جدية:

هنا ينبغى أن تَطْرحَ عنك كل ضعف، لقد وصلنا إلى الساحة، التى سترى فيها المعذّبين الذين فَقَدوا غاية العقل.

دانتى:

أىّ ألَمٍ مرير، يحملهم على هذا البكاء العنيف؟

فيرجيل:

إن هؤلاء ليس لهم فى الموت أمل، وحياتهم العمياء كانت شديدة الضَّعة، فهم حتى فى عذابهم يَحسُدُون كل المصائر الأخرى، فَدَعْنا من ذكرهم وهيا بنا.

دانتى:

لكن من هذا الشيخ الأشيب القادم فى سفينته نحونا؟

فيرجيل:

إنه أول حراس الجحيم كارون..!!!

كارون.. فى غضب:

ويل لكما، لاتَأمُلاَ فى رؤية السماء أبداً فأنا آت لأقودكما إلى الضفة الأخرى فى الظلمات مع النار والجليد، وأنت أنت أيها الإنسان، بَاعِدْ بَيْنك وبين هؤلاء الموتى!! لن يكون هنا عُبورك، فإن زَوْرَقًا آخر سوف يحملك بعيداً بعيداً..

فيرجيل.. يخاطب الحارس:

لاتغضب هكذا أيها الحارس الأمين.. فالذى تراه هو من إرادة الله، ولاتسألنى بعد ذلك مزيدًا !!!

برق ورعد وعواصف مع النواح والبكاء

دانتى:

لكن ما هذا الذى أسمع وأرى..

فيرجيل:

هذا الذى يحمل بيده سيفاً، ووراءه ثلاثة شيوخ كبار؟

دانتى:

نعم نعم إنهم يبتسمون لنا.

فيرجيل:

هذا هو هوميروس، أما الثلاثة الآخَرون فَهُم: هُوراَثْيوس Horathius وأفيديوس Ovidius ولوكانوس Locanus

دانتى:

عجيب وهذه القلعة النبيلة ذات الأسوار العالية، وهذا الخليط من الرجال والنساء فى ذهاب وإياب؟.

فيرجيل:

إنهم طاليس، وديموقريطسْ، وديوجين، وزينون، وإليكترا، وهيكتورو، وبروتسو، والإسكندر، وهيلانة، وسميراميس، وكليوباترا، وراحيل، وأورفيوس، وكاليجولا، وكثيرون..

دانتى:

عجيب!!! لكن ما هذا الميزان؟

فرجيل:

صه فقد دخلنا الآن منطقة السكون المطلق وهذا الميزان هو ميزان الآثام، وهذا الذى يجلس إليه هو قاضى الجحيم، صَمْتاً ولا تُعَطِّلْ رحلةً خَطَّها لك القدر بحكمته العالية!!

أصوات صراع بين المعذبين

دانتى:

ومن هؤلاء الذين يتصارعون فى الجحيم؟

فيرجيل:

إنهم جماعات البخلاء والمُبذرين من الفاسدين.

البخلاء:

لماذا كنتم مجانين ومسرفين؟

المسرفون:

لماذا كنتم أدنياء بخلاء طامعين؟

فيرجيل:

هم جميعا انحرفت عقولهم فى الحياة الأولى، فلم ينفقوا شيئا عن تقدير سليم أو معقول، وبهذا تَنْبحُ أصواتهم حين يتصارعون ويتجادلون حتى إذا جاءوا إلى نقطتين فى الدائرة فَصلَتْهمُ آثامُهم المتعارضة.

دانتى:

انظر سيدى.. إلى هؤلاء!! لقد غَمرهم الطين فى ذلك المستنقع الرهيب، وجوهم عابسة كئيبة وكلهم عريا عرايا إلا من الطين!!!

فيرجيل:

هؤلاء عبيد العنف والغضب والبغض والحِقد، يَبْلَعون الدَّنس والعَفَن، ويستنشقون دُخان الأسى والحزَنَ.

دانتى:

وما هذه الأمواج الدامية الحمراء؟

فيرجيل:

إنها أمواج نهر الدماء الفوارة من شدة الغليان. انظر إلى هؤلاء، إنهم ركب المنافقين والمرتشين والقوادين والقوادات وأبناء وبنات خطايا الضلال والآثام.

دانتى:

يالعدالة السماء!! ومن هؤلاء الواقفون بسهامهم الحادة حول ضفتى النهر؟

فيرجيل:

شياطينُ العذاب، كلما حاول أحد من الغائصين المعذبين فى نهر الدم، أن يرفع رأسه أو جسده، فإنهم يرشقونه بسهامهم، فيغطس فى حمم اللهب والعذاب.

دانتى:

وما هذه الغابة الموحشة الجرداء؟

فيرجيل:

إنها مَثْوى المُنْتحِرين الذين تعجلوا حياتهم فأزهقوها.. انظر إلى أعشاشها المخيفة؟

دانتى:

لها وجوه نساء وأجساد طيور!!

فيرجيل:

وهى تنُوح بدموع من دماء!! اقطع غُصناً صغيراً جدا من أية شجرة وسوف تعرف ما لايخطر لك على بال!!!

دانتى.. يقطع غصنا، فيئن وينوح مع الشجرة:

الشجرة تئن وتنوح والدماء تسيل من موضع الغصن المقطوع، لا أحتمل ...لا أطيق!!! ليس لهذا العذاب الشديد مثيل!!

انتقال

وكانت نهاية رحلة الجحيم، عند هيكل يشبه طاحونة، تحركها الريح، وسط الضباب، إنها مثوى إبليس اللعين!!

وحين أشار فرجيل إلى إبليس ولفت نظر دانتى إلى مشهده ومشهد الخائنين معه، زاد خوف دانتى حتى لم يَعدْ حياً ولا ميتاً.. كان لإبليس ثلاثة وجوه مُرعبة، الأمامىُّ منها أحمر اللون، والأيمن أبيض، والايسر أسود وحين نظر إليه رآه يمضغ فى هدوء بافواهه الثلاثة يهوذا، وبروتس، وكاسْياس، رءوس الخيانة الكبرى!!

انتقال إلى جبل المطهر

حارس الجبل.. فى أمل:

امض على خير وسلام مع رفيقك الطيب لكن قبل أن تمضى، عليك أن تغسل وجهك من علائق الجحيم، بقطرات من أنداء الصباح..

فيرجيل:

ثم ماذا؟

حارس الجبل:

بَعْدَها، طوِّقْ خصرك بهذا النبات المبارك، الذى يعود إلى النماء، كلما اقتطع يعود طيباً مباركاً من جديد.

فيرجيل:

ها هى الشمس المباركة فى دور طلوعها وإشراقها وهى التى سترينا كيف نصعد إلى المرتقى الجميل.

أصوات وضراعات

المبتهلين والمبتهلات

أصوات:

اللَّهم لك الحمد.. اللهم لك الحمد..

اغفر برحمتك معاصينا، دون النظر إلى ما نحن أهل له، وخَلِّصْنا من آثار سيئاتنا، وتُبْ علينا ربَّنا، إننا لانؤدى لك وحدك ختام هذه الصوات والضراعات من أجل ذواتنا، بل فى سبيل من تخلفوا بعدنا وكما نغفر للجميع ما عانيناهُ من إساءاتهم إلينا فالْطُفْ بنا وارحمنا، واغفر خطايانا..

اللّهم لك الحمد.. اللّهم لك الحمد..

اللّهم لك الحمد!!!

انتقال نحو قمة المطهر

دانتى:

سيدى، فى ملحمتك الشهيرة الإنيادة أمر عجيب، شغلنى منذ خطواتنا الأولى فى ساحات الجحيم، وعلى عتبات المطهر الأولى.

فيرجيل:

ولمَ لَمْ تسألنى عنه من قبل؟

دانتى:

شغلتنى المشاهد، بمواجعها وبأشواق أصحابها إلى الخلاص والتطهير فى ساحات الغفران..

فيرجيل:

قُل ماتريد..

دانتى:

تقول فى الإنيادة إن صلواتنا الضارعة قد لاتغير شيئا من أحكام السماء..

فيرجيل:

نعم، قلتُ هذا، ورددتهُ كثيراً..

دانتى:

وما رأيك إذن فيما نراه الآن؟

فيرجيل:

قد أجيبك الآن، ولكنى لن أُقنعك، كما يجب أن تقتنع!

دانتى:

وَمَنْ يُقْنِعُنى، وأنا حائر فى مسالك غامضة؟

فيرجيل.. فى ثقة:

بياترتيشى الطاهرة هى التى ستُقْنعك، وهى التى ستجيب عن سؤالك، وتروى ظمأك إلى المعرفة الحقة.

دانتى.. فى نشوة:

أهذا حق؟ أهذا حق ياسيدى؟

فيرجيل:

نعم هو الحق كل الحق..

دانتى:

بحق السماء، عَجَّلْ بى إذن إلى ساحتها الطاهرة أنا لم أعد أشعر بأى تعب أبداً، أحس أنى أولد من جديد!!

فيرجيل:

صبراً صبراً فليس الأمر بيدى، لأننا معا نمضى فى طريق مرسوم مقدور؛ لكننا على آية حال قد اقتربنا..

دانتى:

اقتربنا؟!!

فيرجيل:

نعم نعم.

الملائكة وأصواتها

فيرجيل:

ألاتسمع صلوات الملائكة الأبرار؟

الملاك الأكبر:

طُوبى لأنقياء القلوب!!!

طُوبى لأصفياء الأرواح..!!

دانتى:

هيا بنا الآن.

فيرجيل:

مهلاً مهلاً..

ملاك الأكبر:

لايمكنكم المضى قُدماً أيتها النفوس المباركة دون أن تتطهروا بالنار قبل العُبور.

دانتى.. فى خوف:

سيدى!!!

فيرجيل:

لاتخف ياعزيزى. لاتخف.

الملاك:

تطهروا بالنار حتى تباركم السماء..

فيرجيل.. فى همس لدانتى:

ربما ينالك بعض العذاب هَهُنا ولكنه لنْ يبلغ بكَ حدَّ الموت، حتى لو مكثت مُدْرجاً بتلك النيران ألفَ عام!!!

دانتى:

هكذا؟

فيرجيل:

نعم ولن تذهب أو تسقط شعره واحدة من رأسك صدقنى يابنى.. وتقدم خلفى.. أنا أمامك وأنت ورائى، ها هو اللهب يندفع أمامك.. ادن منه.. ثم ادفع إليه بكُمَّ ردائك، لتتحققَ من صدق ما أقول.

هيا.. أقدِمْ وتقدمّ، وخَلَّ عنك مخاوفك!!!

فيرجيل:

انظر.. انظرْ إلى هذا الجدار..

دانتى:

نعم سيدى.

فيرجيل:

ليس بينك وبين بياتريتشى الحبيبة، سوى هذا الجدار!!

دانتى.. فى فرح:

ياللسماء!! ياللسعادة!!

فيرجيل:

وعند هذا الجدار أيضا، سيكونُ فراقُ ما بينى وبينك!!

دانتى.. يبكى فجأة:

هكذا ؟؟؟ أَكُلُّ لقاءٍ عزيز معه فراق عزيز؟

فيرجيل:

آه.. هذا هو حكم السماء يا بنى العزيز.. هنا تنتهى خطواتى معك، فليس لمثلى أن يخطو خطوة واحدة نحو الفردوس أو ساحة الفردوس!!

دانتى.. يعود للبكاء:

فيرجيل:

لادموع ولابكاء بعد الآن.. ولادموع ولابكاء بعد هذا المكان، وهذا الزَّمان.

الملاك:

أسرعوا الخُطَى، قبل أن يخيم الظلام، إن الشمس آخذة فى المغيب.

فيرجيل.. دانتى وهو يودعه:

هذه آخر خطواتى معك يابنى!!! لقد حان الفراق بيننا، لكنه كما أعتقد، البداية إلى دوام لقاءٍ مع سماء الصفاء والنقاء.

دانتى:

سيدى!!

فيرجيل:

لقد شهدت كل شئ... ما حلمت به وما لم تحلم وما لم يخطرْ لك فى وهم أو خيال، شاهدت النار الزمنية فى جبل المطهر، بعد النار الأزلية فى الجحيم، والآن جئت إلى موضع لا أرى ولا أتبيّن أنا فيه بنفسى شيئا!!

دانتى:

سيدى!!

فيرجيل:

ولقد أتيت بك هنا، بعد طول طواف وصعود، بحذقى ومهارتى وهأنذا، آدَعُكَ خارج السبل المنحدرة، وبعيداً عن المسالك الضيقة، ، فعليك الآن، أن تتخذ من بهجتك دليلاً لك، ولتنظر إلى الشمس الطيبة، التى تشعُّ على جبينك..

دانتى:

يخيل لى أنى أراها، تبتسم لى، من وراء هذا الجدار تبتسم لى مِنْ بَعيد، نعم!! نعم!!

فيرجيل:

لم يَعُد هناك أمر بعيد أبدا ، وعليك أن تمضى هنا بين هذه الأزهار أو تجلس فى ظلال عبيرها الطيب إلى أن تلقاك، وتأتيك العينان الجميلتان وهماَ مُشْرقتان بالنعيم، تلك العينان اللتان حَمَلَتَانى ببكائهما العذب، على المجئ إليك، والصعود بك، وصحبتك.

دانتى:

لا أدرى ما أقول!!! فقد عجز اللسان والوجدان عن البيان.

فيرجيل:

إنّ إرادتك الآن، حرة خالصة مستقيمة، فلا تنتظر منى بعد هذه اللحظات، مزيداً من كلمة أو إشارة وداعاً، إلى دوام لقاء..

دانتى:

يبكى ثم يختفى بكاؤه مع غناء وصلوات الملائكة تتقدم بياترشتى نحو دانتى.

بياترلتشى:

دانتى!!! هأنذا أمامك.

دانتى:

يبكى من الفرح والذهول.

بياتريتشى:

لابكاء ياعزيزى، لذهاب دَليلكَ وهاديك!! فإنك فى حاجة للبكاء لأسباب أخرى، ، لأن تذرف الدمع، لجراح قديمة!!

دانتى:

لم تَعُدْ فى أوصالى قطرةُ دمٍ لاترتجف!!!

بياترتيشى:

دانتى!! ما هذا الذهول؟ انظرنى وتطلع إلىّ.. أنا فى الحقيقة بياترتيشى!!!

دانتى:

نعم نعم.. ليس حُلماً ما أراه، إنه حقيقة!!

بياترتيشى:

قل لى.

دانتى:

نَعَمْ!!!

بياترتيشى:

كيف وجدتَ نفسك، جديرًا بارتقاء الجبل؟ ألا تدرى أن هذا موئل السعداء من الأبرار الأطهار؟.

دانتى: (-)

بياتريتشى:

لماذا أنت صامت هكذا؟

الملاك.. يتقدم معاتبًا بياتريتشى:

لِمَ تُرهقَينهُ هكذا ياسيدتى؟

نعم نعم واسمعى صوت الملائكة معى.. نعم نعم قَسَوْتِ على «دانتى» فَذهِلِ عن الجواب، وسكت عن الكلام.

بياتريتشى.. فى ثقة:

الحقَّ أقول لكم جميعاً، إنكم تظلون أيقاظا فى اليوم الأخير، بحيث لا يُخفى عنكم الليلُ ولا النومُ خطوةً واحدة أو لحظةً واحدةً يعيَشُها البشر فى مسالكهم وحياتهم.

الملاك:

وما القصد ياسيدتى فيما تقولين؟

بياتريتشى:

وما القصد من إجابتى، هو أن يفهمنى بوجه خاص، مَنْ يبكى فى ذلك الجانب، حتى يدرك أنَّ لكل خطيئةٍ عَذَابَها المناسب!!

الملاك:

لكن..!!

بياتريتشى:

الحقَّ أقولُ.. إننى ساندته فترة من الزمان، واتجهتُ به حقًّا إلى الطريق القويم، لكنه رغم إرادته، اتجه نحو طريق الزلل، وراءَ الصُّور الزائفة، والمتُع الباطلة.. كان ذلك، عندما سَمَوْتُ أنا من حياة الجسد إلى سماء الروح.

الملاك:

ثم ماذا ياسيدتى؟

بياتريتشى:

ولم أجدْ وسيلةً لإنقاذه، رغم أنوار الإلهام التى ناديتهُ بها فى حلمه ويقظته على السواء سِوىَ أن يَرىَ عَذَاب الآثمين فى الجحيم، ويَشهد المتضرعين فى ساحات جبل المطَهْر، فيتّعظ،

ويندم، ويستغفر ويتوب، ويصبح حقاً، جديراً بالصعود إلى السماء، سماء الفردوس والنعيم المقيم.

الملاك:

لَعَلَّ لكِ عُذراً، فيما بدا لنا من إرهاقكِ له!!

باتريتشى:

لقد بكيتُ وبكيتُ كثيراً من أجله، ولذا زُرتُ باب الموتى، وهبطت من السماء إلي مدينة الجحيم لإنقاذه، وحَملْتُ ضَرَاعاتى ومدامعى إلى مَنْ جاء به صُعُداً، إلى هذا المكان السامى، فكان له خير دليل، وأكرمَ مُرشد، وأطيب هادٍ إلى سواء السبيل.

دانتى.. يبكى فى ندم.

بياتريتشى:

تكّلمْ تكّلمْ.. ولاتَبْكِ فلا دموع ولا بكاء بعد الآن، وإن كنتُ أحق الأرواح بسماع كلامك، ومشاهدة دموعك، لَعَلّ ذلك يُسْهِمُ فى تطهيرك ونقائك وصفائك!! إننى أحس أنك حقًا تتألم، لكن تكّلمْ حتى أعرف إلى أى مَدىً أنت تتألم!!

دانتى:

لقد انحْرَفَتْ خطواتى، عندما توارى وَجْهكِ عنى فى الدنيا، وقبل الرحيل إلى الدار الآخرة..

خَدَعتْنى الأشياء الماثلةُ أمامى، بزَائفِ لَذاّتها الفانية، عندما تركتِ عالمى، ودنياى، وحتى أحلامى!!

بياترتيشى:

وإرادتك؟ أين كانت إرادتك؟ لقد بكيتُ من أجلك كثيراً كثيراً.، . ألَمْ تكن تدرى أن كل شئ لا يَخْفَى على رؤية الله الأعظم؟؟!!

دانتى.. يعود إلى البكاء.

بياتريتشى:

كفى بكاءً ياعزيزى كَفَىَ ..كَفَى فإن اعتراف الآثمِ بإثمة، يُخفّفُ من ذنبه، ويطهر قلبه، بدموع ندمه وتوبته.

دانتى:

نعم نعم.

بياترتشى:

ستعرف الآن، كيف كان ينبغى أن يقودك جسدى، وهو ممدد فى قبره إلى طريق الفضيلة.

لقد كان عليك أن تعلوَ فى أثرى، على معراج صُعودى، عندما أصابك أول سهم، من سِهام الدنيا الخادعة..

دانتى:

نعم هذا حق.

بياترتشى:

إنّ صغار الطير تظلُّ مُتَمَهِّلةً عند رمية سهم أو سَهمين، أو ثلاثة، لكنْ من العبث أن تُنْصَبَ الشباك أو تُرمى السهام، على مَرأىً من الطيور المكتملة القوية!!.

دانتى : (-)

بياتريتشى:

عُدتَ ثانية إلى الصمت، وقد خفضتَ رأسك... الحق أقول لكَ، مادُمتَ تَأسى بسماع كلامى فارفعْ رأسك، نعم ارفع رأسك حتى ينالك مزيد من الندم، بدوام النظر إلىّ..

دانتى:

(يسقط مغشيًا عليه من تأمله فى عينيها بياتريتشى!!!)

الملائكة:

لقد سقط مغشياً عليه من الذهول..

هيا لانقاذه.

الملاك:

أُغْمُرَنَهُ فى النهر المبارك قليلاً وسوف يصحو مُعَافىً فَتِيًّا.. من جديد!!

حركة الأمواج مع عملية التطهير

دانتى.. يستيقظ على مهل:

حمداً للسماء وشكراً لكُنَّ أيتها المباركات الطيبات..

الملائكة:

نحن هنا حُوريّات، لكننا فى السماء نجوم وقبل أن تهبط سيدتُنا وأميرتنا «بياتريتشى» كنا قد أضحينا وصيفاتها الأثيرات!!.

دانتى:

حمداً للسماء، وشكراً لَكُنَّ ولَها!!

لكن أين هى؟ وأين أنا الآن منها؟

الملائكة.. فى ايقاع موسيقى:

ها هى أميرتُنا، أمامك فتقدمْ وانظر إليها..

سوف تراها بَعْيْنَيْنْ صحيحتين تتّفقان مع عينيها المتألقتينْ اللَّتَينْ، عرفتَ الحبّ عن طريقهما ذاتَ يوم!!

فى تلك الدنيا البعيدة!!!

تَقَدَّمْ إنها تبتسم لمقدمك

تَقَدّمْ إنها تنظر إليك

تَقَدّمْ نحو الجلال المتألق

بالنور الأبدى المديد..

على شاطئ الفردوس

بياتريتشى.. فى رقة وعذوبة:

تَقَدَّمْ يا عزيزى، إنك ستكون هنا، من سكان هذا الوادى

لفترة قصيرة، لكنك ستصبح معى بلا نهاية ، من أهل روما العظيمة. .

دانتى:

ما أسعدنى حقّا وحمداً وشُكراً لله، ، ولكِ.

بياترتيشى:

لهذا أطلب إليك أن تتأمل طويلاً ما تشهده وتراه، ثم تسجله حرصاً على صالح العالم الذى يحيا حياة الشرور، عندما تعود إلى عالَمك الأدنى.

دانتى:

سمعاً وطاعةً.

بياتريتشى:

هلا تسرع الخُطى قليلاً، حتى تصبح فى موضع ملائم للإصغاء، ولحوار السؤال والجواب؟ لكن قل لى، لم لا تجترئ وترد على سؤالى بما تريد، مادمتَ تسير إلى جوارى الآن؟

دانتى:

لَعَلَكِ يا مولاتى عليمة بحاجتى، وبما يطيب لها.

بياتريتشى:

كلُ ما أرغبه منكَ، هو أن تحرر نفسك من الخوف والخجل حتى تكفّ عن الكلام، شأن الرجل حينما يحلم!!

دانتى:

نعم نعم.

بياتريتشى:

وعليك أن تعى كل ما أقوله لك، لتنقله إلى كل من يعيشون الحياة التى هى إلى الموت سباق وسباق!! فى دُنيا فانية، تافهة المتعة، قصيرة الأمد.

دانتى:

نعم يا أميرتى..

بياتريتشى:

وحين تدون كلماتى.. اذكُر فيما تذكر، كيف رأيت الشجرة الخالدة، التى انتُزعتْ ههنا أوراقها مرة ثانية منذ المرة الأولى، التى كانت بيد آدم فى فجر البشرية الأولى..

دانتى:

وكيف يامولاتى أذكر ماتريدين أن أذكره؟

بياتريتشى:

تعرفُ أن كلَّ من يسرقها أو يسلبها شيئاً، يُسيءُ بقبيح فِعله، إلى قَداسة الله الأعظم الذى لم يخلقها هكذا مقدسة، إلا لخدمة هدفه الأسمى؟

دانتى:

لقد أكَلَ منها أبونا آدم، يامولاتى!!!

بياتريتشى:

وعندها!!!

دانتى:

ماذا حدث عندها؟

بياتريتشى:

وعندها، تطلعت النفسُ الأولى فى شوق وعذاب آلاف الآلاف من السنين، إلى من يغفر لها خطيئتها الكبرى. وإنك

لَتُعَدُّ غائباً عن وعيك، إذا لم تُقَدَّرْ، أن سبباً فريداً عظيماً، قَدْ سَمَا بهذه الشجرة إلى ذلك الارتفاع الشاهق، وبه امتدتْ هكذا ، نحو القمة العليا.

دانتى:

كل ما تقولينه يامولاتى. ينطبع فى ذهنى أولاً بأول، كَشَمْع الختم، الذى لاتتغير صورته مطلقاً!!!

بياتريتشى:

جميل..

دانتى:

ولكنّ كثيراً من كلماتكِ تُحلق بى كثيرا، عالية فوق مداركى.

بياتريتشى:

كيف ياعزيزى؟

دانتى:

الحقَّ أقول، إننى كثيراً ما أحارُ فى فهمها.. إن كلماتكِ

الحلوة العذبة، التى تتوق نفسى لسماعها، وتكرار سماعها، كثيراً ما يزداد بُعْدى عنها أوْ بُعْدها عنّى، كلما سعيتُ شوقاً إليها وإلى سماعها!!

بياتريتشى.. تبتسم فى ضحكة خفيفة:

بدأت تفهمنى ياشاعرى!!! وكل هذا، لكى تعرف أية مدرسة اتَّبعتَها أنت، ولكى ترى كيف يمكن لتعاليمها أن تتبع كلماتى!!

دانتى:

آه غمض الأمر علىّ الآن..

بياترينشى:

أريد أن أوصيك، بألا تثق كثيراً فى العلم الفلسفى الذى يبحث عن الحقيقة، دون العناية البصيرة، بالعلم الذى يشعُّ ويفيض من الإلهام السماوىّ العُلوى!.

دانتى:

نعم نعم يامولاتى، فهمت فهمتُ!!

بياتريتشى:

ولكى تدرك أن هذا الطريق الخارج عن الصراط، يَنْأى عن طريق الله كما تنأى عن الأرض السماء!!

دانتى:

لا أذكر يا أميرتى، أنى جعلتُ نفسى غريبة عنك أبداً أبداً.

بياتريتشى:

إذا كنتَ قد نسيت، فاذكر كيف شربتَ اليوم من النهر المبارك، وإذا مادلّ الدُخان على اشتعال النار، فإن هذا يؤكد وجودها ، كما يؤكد نسيانُك، إن إرادتك تناوشها الخطيئة، باتجاهها وجهةً أخرى.. مخالفة!!

دانتى:

عفواً مولاتى!! قد فهمتُ ما غاب عنى، لكنّ هناك سؤالاً يُحيّرنى. إنّ عالمَنا الأرضىّ، فى دنيانا البشرية، غارق فى كثير من الخطايا، بعض الناس يَنْسبون هذا إلى إرادة سماوية، آخرون ينسبونه إلى البشر أنفسهم إننى التمس منك الجواب، وأريد اليقين!!

بياتريتشى:

ياعزيزى.. إن دنياكم عمياء.. وإنك لآت منها حقاً بهذا السؤال الذى يتفق معها.. أنتم مَعْشرَ البشر تُرْجعون كثيراً من هذه الأمور إلى السماء وحدها، مع أن مسئولية حدوثها تَقَعُ عليكم أنتم!! ولو كان الأمر كذلك كما تظنون، لَقُضِىَ فيكم على الإرادة الحرّة المسئولة، ولما كان هناك داعٍ إلى الجزاء العادل من السماء.

دانتى:

هذا حق.. حق!!

بياتريتشى:

أسألك أنت بالذات ، ألا ترى البشر يبتهجون للخير، ويحزنون للشر؟.

دانتى:

نعم.

بياتريتشى:

إنّ الله العادل الأعظم، قد أعطى الإنسان الاستنارة بضوء

العقل لاتباع الخير واجتناب الشر ، كما أعطاه الإرادة الحرة التى إن احتملتْ الَعَناء فى بداية معاركها، مع الأهواء والنزوات، ظفرت بالرضا الإلهى والمحبة الإلهية فى النهاية.

دانتي:

حدثينى عن المحبة الطبيعية وصلتها بالأخطاء والخطايا من جهة والصالح أو الطيب من الأفعال والأعمال؟

بياتريتشى:

المحبة الطبيعية هى المحبة العاقلة، وهى لاتقع فى الخطأ أو الخطيئة... ربما تتعرض للخطأ أو للخطيئة، إما بخبيث مقصدها، وسُوء سلوكها وجنوحها، وإما بزيادة حرارتها أو نقصانها.

دانتى:

يحتاج الأمر إلى توضيح.

بياترتشى:

أريد أن أقول: إن المحبة العاقلة، إذا اتجهت فى كل نواياها وسلوكها إلى الله أعتدلتْ واستوت فى محبة الخيرات الدنيوية، وسَمَتْ بها دُون أن تَجْنَحَ إلى الخطايا أبداً!!!

دانتى:

جميل!!

بياتريتشى:

لكنها إذا جنحت بَهَواها إلى مُتعٍ ناقصة تافهة ونَقَصَتْ عنايتها بالخير وسُلوك الخير، فإن الإنسان بلا ريب يقع فى شباك الخطايا والأخطاءِ والشرور.

اسمع ياعزيزى.. ما من دليلٍ على التطهر سوى الإرادة العاقلة نفسها. وهى إرادة تملأ النفس نُورًا حين تكتمل حُريتها، وإن العالم كلَّه يسوده النظام الكامل العادل، حين يجعل كائناته، فى وحدة، مع الله الواحد الأعظم.

***

على مَسْرَى الصعود من الفردوس الأرضى، إلى سماوات الفردوس الأعلى، كانت بياتريتشى تتنهد حُبًّا وإشفاقاً على دانتى، وتنظر إليه نظرة الأم إلى وليدها الذى يتكلم طويلاً ويَهْذى أحياناً كثيرة، لقد كانت أَشبْه بعصفور، يحتضنُ أعشاش صغاره فى الليل ليُطرَحَ عنها بعيداً، كل ما هو دخيل، ويُفيضَ عليها، كُل ما هو حبيب جميل.

دانتى:

أكاد لا أعى يا أميرتى، من فَرْطَ ما يملؤنى من السعادة مايَبْهَرُك يا عزيزى.

بياتريتشى:

إنما هو فضل من الله ليس لأحد أن يمنع عنه رُوحَهَ ونفسه!!!

دانتى:

نعم يا أميرتى الحبيبة!!!

بياتريتشى:

انظر إلى هذا الضوء الساطع..

إن الكون كلّه مرتبط بهذه النقطة، من دائرة النور الخالد وإن السماوات تتسع وتضيق، تبعاً للفضل الإلهىّ، الذى يسرى فى أرجائها الرحيبة!!

وقد ازدادتْ السموات هنا تَوَهجا، لابتهاج الملائكة بما سمعوه، وصَدَحَتْ أصواتهم بما أنشدوه فى تمجيد الله الأعظم..

حمداً لله!!! حمداً لله!!! حمداً لله!!!

تختفى بياتريتشى رويداً رويداً
فلا يراها «دانتى» إلا كشبح بعيد

دانتى:

بياتريتشى:؟ أميرتى..؟ أميرتى؟ أين أنت؟؟!!

بياتريشتى.. من بعيد:

لقد خرجتُ الآن إلى سماء النور الخالص، إلى سماءِ السّماوات!!!

دانتى:

آه.. لهفى على نفسى مِنْ بعدك.. إننى لا أرى إلا نهراً من نور..!!!

بياتريتشى:

ما تراه ليس سوى ظلال المحبة من حقيقة النور.

دانتى:

أيها البهاء الطاهر، هَبْنى القوة، لكى أرْوى للبشرية على أية حالٍ رأيتُكَ.. وشهدتُكَ.. وأبصرتُكَ..

بياتريتشى.. أكثر بعداً:

إن هذا النور الأعظم، يكشف لكل الكائنات عن خالقها، وهى التى لاسلام لها، إلا فى محبته ورؤياه.

دانتى:

أين أنتِ يا أميرتى؟

لقد بَعُدتِ عن مكانى كثيراً كثيراً..

بياتريتشى:

أنا أراك، وأنظرُ إليكَ، ولا أرى لكَ إلا خيراً.

دانتى:

أتوسّلُ إليك أن تحتفظى لى بطهارتى، حتى تَرُوقَ لكِ روحى، عندما أموت!!!

بياتريتشى:

لَكَ ما تريد.. وفوق ما تريد!!!

تختفى بياتريتشى نهائياً

دانتى. . فى صفاء:

يا مَنْ عاش بها أملى فى دنياى، وسيظل حيًّا خالدًا فى أخراى. . لقد احتملتِ فى سبيل خلاصى وحريتى أَنْ تتركى آثار قدميك الطاهرتين هناكَ فى وديان الجحيم. .

فَلْتَحفَظى جلالك، فى شخصى، وفى نفسى، وفى روحى، حتى أكون جديراً بلقائك، حينما تتخلص روحى من جسدى. . . ،أيُّها النُّور الأسمى، الذى يشتّد عُلُوُّهُ على أفكارنا الفانية أَعِرْ عقلى وقلبى، قبساً من الصورة التى بدوتَ عليها وَدَعْ للسانى من القوة، ما يجعلُه قادراً على أن يتركَ من أمجادك لَلأجيال، مُجَرَّدَ شرارةٍ واحدة من نورك الأزلىّ الخالد!!!

لقد شهدتُ الأوراق التى تناثرتْ فى أرجاء الأكوان، برباط المحبة فى كتاب واحد!!!

وسيُصبحُ قَوْلى للأجيال، أعْجَزَ من لَغَطِ طفلٍ رضيع، لايزال يُبّلل لسانهُ، من حَنَان ثدْى أُمِّه!!!

هأنذاك أحيا من جديد، أمام هذا المشهد الجديد. . فقد أردتُ أن أرى كيف اتَحَدتْ الصورة بالدائرة، وكيف شهدتُ لها موضعاً فيها، وكيف وجدتُ لنفسى مكانا معها. . . على ضوء المحبة الخالقة، المحبة التى تُحرّكُ الشُّموسَ والكواكبَ وسائر الكائنات، فى الأرض والسموات.

أهم المصادر والمراجع

- أبو العلاء المعرى: رسالة الغفران: تحقيق وتقديم الأستاذة الدكتورة عائشة عبدالرحمن ط٦ - دار المعارف القاهرة ١٩٧٧م.
- دانتى - الكوميديا الإلهية. ثلاثة مجلدات ترجمة وتحقيق وتقديم وتعليق الأستاذ الدكتور حسن عثمان.

الجحيم. المطهر. الفردوس - دار المعارف ١٩٧٧م.

- د. طه حسين: مع أبى العلاء فى سجنه ١٩٦٠م.
- عباس محمود العقاد: رجعة أبى العلاء ١٩٥٥م.
- د. عبدالرحمن بدوى: الزمان الوجودى (نص رسالة الدكتور بدوى للدكتوراه) النهضة المصرية ١٩٤٦م.
- د. زكريا إبراهيم: مشكلة الإنسان - مكتبة مصر ١٩٧٠م.
- د. زكريا إبراهيم: فلسفة الفن فى الفكر المعاصر - مكتبة مصر ١٩٨٨م.
- د. عبدالغفار مكاوى: ألبيركامى - دار المعارف ١٩٦٤م.
- د. عبدالقادر محمود: الفلسفة الصوفية فى الإسلام ط٣ - دار المعارف ١٩٩٣م - ١٩٩٤م.
- د. عبدالقادر محمود: الفكر الإسلامى والفلسفات المعارضة فى القديم والحديث ط٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.